

٦ - ابن طفيل

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي، أحد أكابر حكماء العرب بالأندلس ولد في أوائل القرن الثاني عشر للمسيح (القرن السادس للهجرة) بوادي آش إحدى مدن ولاية غرناطة، واشتهر بالطب والرياضيات والحكمة والشعر، شغل منصب كاتم أسرار حاكم غرناطة زمناً يسيراً ثم صار وزيراً وطبيباً للأمير يوسف أبي يعقوب بن عبد المؤمن، ثانی أمراء أسرة المهدي المتوفى سنة ٥٨٠ هـ

ذكر ابن الخطيب أن ابن طفيل علّم الطب في غرناطة وألف فيه كتابين، وروى عبد الواحد المراكشي وهو من اتصلوا بأولاد ابن طفيل، أن المودة كانت بين الحكيم والأمير عظيمة جداً، وأنه رأى بنفسه كتباً في الفلسفة وفي علم النفس وكثيراً من شعره بخط الفيلسوف، وقد انتهب ابن طفيل فرصة تقربه من الأمير فجلب إلى القصر مشاهير حكماء عصره، وهو الذي قدم إلى الأمير، حكيم الأندلس ابن رشد وكان الأمير يطلب منه يوماً أن يرشده إلى عالم خبير بمؤلفات أرسطو ليطلب إليه تفسيرها وتحليلها تحليلًا جليلاً فطلب ابن طفيل إلى ابن رشد أن يقوم بهذا العمل واعتذر للأمير عن إنجازهِ بكَبر سنهِ فإبى ابن رشد هذا الطلب وقام بتحليل كتب أرسطو

وقد توفي ابن طفيل في مراكش عام ١١٨٥ وسار المنصور في جنازته ولم يبق لنا من مؤلفات ابن طفيل إلا كتاب واحد هو كتاب «حي بن يقظان» وذكر كازيري كتاباً باسمه «أسرار الحكمة المشرقية» وهو كتاب «حي بن يقظان» نفسه وذكر ابن أبي أصيبعة في ترجمة ابن رشد، أن ابن رشد ذكر لابن طفيل كتاباً «في البقع المسكونة والغير المسكونة» وقال ابن رشد أيضاً في الإلهيات (الكتاب الثاني عشر) أنه كانت لابن طفيل آراء ثمانية في الأجرام الداخلة والخارجة .

وهذا يدل على أنه كان لابن طفيل علم واسع بالفلك، وذكر أبو اسحق البتروجي الفلكي الشهير في مقدمة كتابه في الفلك وهو الذي أراد أن يستبدل نظريات بطليموس به

« تعلم يا أخى أن استاذنا القاضى أبا بكر بن طفيل قال إنه وفق لنظام فلكى لتلك الحركات ، كان يتبعه غير النظام الذى اتبعه بطليموس ، وانه فى غنى عن الدوائر الداخلة والخارجة وان نظامه يحقق حركات الاجرام بدون وقوع فى الخطأ ووعدنا بالتأليف فى هذا الباب ولا عجب فان علمه غنى عن الاطناب »

أما الكتاب الوحيد الذى يثبت فضل ابن طفيل فهو الذى يتضمن فلسفة وقته فى شكل قصة خيالية .

ويظهر من هذا الكتاب أن ابن طفيل كان من الاشرافيين ، وقد حاول بطريق التأمل أن يحل معضلة كبرى شغلت حكماء وقته وهى علاقة النفس البشرية بالعقل لأول ، فانه لم يقنع برأى الغزالى الذى اكتفى فى الاتصال بالتصوف انما اتبع رأى ابن باجه وأظهر نمو الفكر الانسانى درجة فدرجة فى شخص إنسان منقطع بعيد عن مشاغل الحياة سليم من آثارها وأدرانها ، واختار ابن طفيل مخلوقاً لم يعلم من الحياة شيئاً وقد نما عقله فى الانفراد المطلق بذاته وتنبه فكره بقوته وبدافع من العقل الفعال فأحاط بفهم أسرار الطبيعة وحل أعضل المسائل الالهية : هذا ما أراد ابن طفيل من كتابه « حى بن يقظان » ، وسبأنى الكلام عليه عند تحليل فلسفته

فكان ابن طفيل فلكياً ، رياضياً وطبيعياً وشاعراً ، نائراً رقيق الأسلوب رقيق العبارة . والفضل فى إظهار مواهبه والاحتفاظ بها إلى الأمير يوسف بن عبد المؤمن ، فقد كان عبد المؤمن عهد فى حياته إلى أكبر أولاده وهو محمد بالامارة وبايعه الناس وكتب ببيعته إلى البلاد ، فلما مات عبد المؤمن لم يتم لابنه محمد الأمر وخُلِع . وكان الذى سعى فى خلعه أخواه يوسف وعمر ابنا عبد المؤمن . ولما تم خلعه دار الأمر بين الأخوين المذكورين وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوى رأى فتأخر منهما أبو حفص عمر وأسلم الأمر إلى أخيه يوسف وهو أبو يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن على القيسى الكومى صاحب المغرب فبايعه الناس واتفقت عليه الكلمة .

كان الأمير يوسف المذكور أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها

في الجاهلية والاسلام . وقد صرف عنايته إلى ذلك واتقى فضلاء أشبيلية أيام ولايته ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخارى وكان يحفظ القرآن الكريم مع جملة من الفقه ثم طمح إلى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب وجمع من كتب الحكمة شيئاً كثيراً .

وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن أبو بكر محمد بن الطفيل وكان متحققاً بجميع أجزاء الحكمة ، قرأ على جماعة من أهلها ، وبحسب ابن خلكان في ج ٢ ص ٣٧٤ أن أبا بكر بن الصائغ وهو المعروف بابن باجه السابقة ترجمته في هذا الكتاب كان من أساتذة ابن الطفيل وهذا غير صحيح ، بنص صريح من قول ابن الطفيل نفسه في كتبه سيأتى ذكره ص ١٠١ وكان ابن الطفيل حريصاً على الجمع بين علم الشريعة والحكمة وكان مفنناً ، ولم يزل يجمع إليه العلماء في كل فن من جميع الأقطار ومن جملتهم أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد كما سيأتى ذكره بالتفصيل في ترجمة ابن رشد

جمل ابن طفيل فلسفته في شكل جواب على سؤال توجه إليه من أحد اخوانه وهذا بالطبع تقاليد لابن سينا والغزالي قال :

« سألت أيها الكريم الأنخ الصفي الحميم ، منحك الله البقاء الأبدى ، وأسعدك السعد السرمدي ، أن أثبت إليك ما أمكنتني به من أسرار الحكمة المشرقية ، التي ذكرها الشيخ الامام الرئيس ابو علي بن سينا . فاعلم أن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطايبها والجد في اقتنائها

وصف الحال التي شعر بها ابن طفيل

ولقد حرك منى سؤالك خاطراً شريفاً أفضى بي والحد لله الى مشاهدة حال لم أشهدها قبل ، وانتهى بي إلى مبلغ هو من الغرابة بحيث لا يصفه لسان ، ولا يقوم به بيان ، لأنه من طور غير طورها ، وعالم غير عالمها . غير أن تلك الحال لما لها من البهجة والسرور ، واللذة والحبور ، لا يستطيع من وصل اليها وانتهى إلى حد من حدودها ، أن يكتم أمرها أو يخفي سرها ، بل يعتريه من الطرب والنشاط ، والمرح والانبساط ما يحمله على

البوح بها بمجمله دون تفصيل ، وان كان ممن لم تحذقه العلوم ، قال فيها بغير تحصيل ، حتى أن بعضهم قال في هذه الحال : س . ب . ح . ا . ن . ي . م . ا . ا . ع . ظ . م . ش . ا . ن . ي ! وقال غيره : ا . ن . ا . ا . ل . ح . ق ! وقال غيره ليس في الثوب الأ . ل . ل . ل . ه !

وأما الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله فقال متمثلاً عند وصوله إلى هذه الحال فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

فلسفة ابن باجه في رأى ابن طفيل

وانظر إلى قول ابى بكر بن الصائغ المتصل بكلامه في صفة الاتصال ، فانه يقول « اذا فهم المعنى المقصود من كتابة ذلك ظهر عند ذلك انه لا يمكن أن يكون معلوم من العلوم المتعاطاة في رتبة ، وحصل متصوره بفهم ذلك المعنى في رتبة يرى نفسه فيها مبايناً لجميع ما تقدم مع اعتقادات أخر ليست هيولانية ، وهى أجل من أن تنسب إلى الحياة الطبيعية ، بل هى أحوال من أحوال السعداء ، منزهة عن تركيب الحياة الطبيعية ، بل هى أحوال من أحوال السعداء خليفة أن يقال لها أحوال الهية يهبها الله سبحانه وتعالى لمن يشاء من عباده » وهذه الرتبة التى أشار إليها أبو بكر ينتهى إليها بطريق العلم النظرى والبحث الفكرى ، ولا شك أنه بلغها ولم يتخطها ...

الذى يعنيه ابن طفيل بادراك أهل النظر والطعن في ابن باجة

الذى نعنيه بادراك أهل النظر هو ما يدركونه مما بعد الطبيعة ، مثل ما أدركه أبو بكر ، ويشترط في ادراكهم هذا أن يكون حقاً صحيحاً ، وحينئذ يقع النظر بينه وبين إدراك أهل الولاية الذين يمتنون بتلك الأشياء بعينها مع زيادة وضوح وعظيم التذاذ . وقد عاب أبو بكر ذكر هذا الالتذاذ على القوم ، وذكر انه للقوة الخيالية ووعد بأن يصف ما ينبغي أن يكون حال السعداء عند ذلك بقول مفسر مبين . وينبغي أن يقال له

« لا تستحل طعم شيء لم تذوق ، ولا تتخط رقاب الصديقين ! » ولم يفعل الرجل شيئاً من ذلك ولا وفى بهذه العدة (الوعد) وقد يشبه أن منعه عن ذلك ما ذكره من ضيق الوقت واشتغاله بالنزول الى وهران ، أو راعى انه إن وصف تلك الحال اضطراره القول إلى أشياء فيها قدح عليه فى سيرته وتكذيب لما أثبتته من الحث على الاستكثار من المال والجمع له وصرف وجوه الحيل فى اكتسابه (كذا)

ولم يكن فى المتأخرين أثقب ذهناً ولا أصح نظراً ولا أصدق رواية من أبى بكر ابن الصائغ ، غير أنه شغله الدنيا حتى اخترته النية قبل ظهور خرائن علمه وبث خفايا حكمته . واكثر ما يوجد له من التأليف انما هى غير كاملة ومجزومة من أواخرها ، ككتابه فى النفس وتدبير المتوحد وما كتبه فى المنطق وعلم الطبيعة . وأما كتبه الكاملة فهى كتب وجيزة ورسائل مختلفة ، وقد صرح هو نفسه بذلك وذكر أن المعنى المقصود برهانه فى « رسالة الاتصال » ليس يعطيه ذلك القول عطاءً بيناً إلا بعد عسر واستكراه شديد ، وان ترتيب عبارته فى بعض المواضع على غير الطريق الأكمل ، ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها . فهذا حال ما وصل الينامن عالم هذا الرجل ونحن لم نناق شخصه وأما من كان معاصراً له ممن لم يوصف بأنه فى مثل درجته فلم نرَ له تأليفاً

نقد فلسفة الفارابى وغيره من المتقدمين

بقلم ابن طفيل

وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا ، فهم بعد فى حد التزايد أو الوقوف على غير كمال أو ممن لم تصل البنا حقيقة أمره

وأما ما وصل الينامن كتب أنى نصر فأكثرها فى المنطق ، وما ورد منها فى الفلسفة فهى كثيرة الشكوك ، فقد أثبت فى كتاب « الملة الفاضلة » بقاء النفوس الشريفة بعد الموت فى آلام لانهاية لها بقاء لا نهاية له ثم صرح فى السياسة المدنية بانها منحلة وصائرة الى العدم وانه لا بقاء إلا للنفوس الكاملة . ثم وصف فى كتاب الأخلاق شيئاً من أمر السعادة الانسانية وانها انما تكون فى هذه الحياة التى فى هذه الدار . ثم قال عقب ذلك

كلاماً هذا معناه : « وكل ما يذكّر غير هذا فهو هذيان وخرافات عجائز » . فهذا قد أياّس الخلق جميعاً من رحمة الله تعالى وصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة إذ جعل مصير الكل إلى العدم ، وهذه زلة لا تقال وعثرة ليس بعدها جبر ! هذا ما صرح به من سوء معتقده في النبوة وانها بزعمه للقوة الخيالية خاصة ، وتفضيله الفلسفة عليها إلى أشياء ليس بنا حاجة إلى ايرادها (راجع ما اوردها عن هذه المسألة الدقيقة في صفحة ٤٧ من « ايضاح فلسفة الفارابي بنصوص منها »)

نقد فلسفة ابن سينا

وأما كتب ارسطوطاليس فقد تكفل الشيخ أبو عليّ بالتعبير عما فيها وجرى على مذهبه وسلك طريق فلسفته في كتاب الشفاء ، وصرح في أول الكتاب بأن الحق عنده غير ذلك وأنه انما ألف ذلك الكتاب على مذهب المشائين وأن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بكتابه في الفلسفة المشرقية ، ومن عني بقراءة كتاب الشفاء وبقراءة كتب ارسطوطاليس ظهر له في اكثر الأمور أنها تتفق وإن كان في كتاب الشفاء أشياء لم تبلغ الينا عن ارسطو واذا أخذ جميع ما تعطيه كتب ارسطو وكتاب الشفاء على ظاهره دون أن يتفطن لسره وباطنه لم يصل به الى الكمال حسباناً عليه الشيخ أبو عليّ في كتاب الشفاء

نقد فلسفة الفزالي

وأما كتب الشيخ أبي حامد الفزالي فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع ويحل في موضع آخر ويكفر بأشياء ثم يتحللها ثم ان من جملة ما كفر به الفلاسفة في كتاب التهافت انكارهم لحشر الأجساد واثباتهم الثواب والعقاب للنفس خاصة ثم قال في أول كتاب « الميزان » أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع ثم قال في كتاب « المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال » أن اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية وإن أمره إنما وقف على ذلك بعد طول البحث . وفي كتبه من هذا النوع كثير يراه

من تصفحها وأمعن النظر فيها وقد اعتذر عن هذا الفعل في آخر كتاب « ميزان العمل » حيث وصف أن الآراء ثلاثة أقسام . رأى يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه . ورأى يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد . ورأى يكون بين الانسان ونفسه لا يطلع عليه إلا من هو شريكه في اعتقاده ثم قال بعد ذلك « ولو لم يكن في هذه الألفاظ إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعاً فان من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة » ثم تمثل بهذا البيت :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يفنيك عن زحل

فهذه صفة تعليمه وأكثره إنما هو رمز وإشارة لا ينتفع به إلا من وقف عليها ببصيرة نفسه أولاً ثم سمعها منه ثانياً أو من كان معداً لفهمها فائق الفطرة يكتب بأيسر إشارة وقد ذكر في كتاب « الجواهر » أن له كتباً مضموناً بها على غير أهلها وأنه ضمنها صريح الحق ولم يصل إلى الأندلس في علمنا منها شيء بل وصلت كتب يزعم بعض الناس أنها هي تلك المضمون بها ، وليس الأمر كذلك وتلك الكتب هي « كتاب المعارف العقلية » وكتاب « النفخ والتسوية » و « مسائل مجموعة » وسواها وهذه الكتب وإن كانت فيها إشارات فإنها لا تتضمن عظيم زيادة في الكشف على ما هو مثبت في كتبه المشهورة وقد يوجد في كتاب « المقصد الاسنى » ما هو أغص مما في تلك وقد صرح هو بأن كتاب « المقصد الاسنى » ليس مضموناً به فيلزم من ذلك أن هذه الكتب الواصلة ليست هي الكتب المضمون بها وقد توهم بعض المتأخرين من كلامه الواقع في آخر كتاب المشكاة أمراً عظيماً أوقعه في مهواة لا تخص له منها وهو قوله بعد ذكر أصناف المحجوبين بالأنوار ثم انتقاله إلى ذكر الواصلين « أنهم وقضوا على أن هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافي الوحدانية المحضة » فأراد أن يلزمه من ذلك أنه يعتقد أن الحق سبحانه في ذاته كثرة ما ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ! ولا شك عندنا في أن الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة القصوى ووصل تلك المواصل الشريفة المقدسة ، لكن كتبه المضمون بها المشتملة على علم المكاشفة لم تصل إلينا

تمهيد لفلسفة ابن طفيل

التي أفرغها في قالب رسالته « أسرار الحكمة المشرقية »

ولم يتخلص لنا نحن الحق الذي اتهمنا إليه وكان مبلغنا من العلم بتتبع كلام الغزالي وكلام الشيخ أبي عليّ وصرف بعضهم إلى بعض وإضافة ذلك إلى الآراء التي نبغت في زماننا هذا ، ولهج بها قوم من منتحلي الفلسفة حتى استقام لنا الحق أولاً بطريق البحث والنظر ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة وحينئذ رأينا أنفسنا أهلاً لوضع كلام يؤثر عنا وتعين علينا أن تكون أيها السائل أول من أنحفناه بما عندنا وأطلعناه على ما لدينا لصحيح ولأنك وزكاه صفائك غير أنا ان ألقينا اليك بغايات ما اتهمنا إليه من ذلك من قبل أن تحكم مبادئها معك لم يفدك ذلك شيئاً أكثر من أمر تقليدي مجمل هذا إن أنت حسنت ظنك بنا بحسب المودة والمؤالفة لا بمعنى أننا نستحق أن يقبل قولنا ونحن لا نقنع لك بهذه الرتبة ولا نرضى لك إلا ما هو أعلى منها إذ هي غير كافية بالنجاة فضلاً عن الفوز بأعلى الدرجات وإنما نريد أن نعملك على المسالك التي تقدم عليها سلوكنا ونسبح بك في البحر الذي قد عبرناه أولاً حتى يفضى بك إلى ما أفضى بنا إليه قشاهد من ذلك ما شاهدناه وتحقق ببصيرة نفسك كل ما تحققناه وتستغنى عن ربط معرفتك بما عرفناه . وهذا يحتاج إلى مقدار معلوم من الزمان غير يسير وفراغ من الشواغل وإقبال بالهمة كلها على هذا الفن فان صدق منك هذا العزم وصحت نيتك للتشهير في هذا المطلب فستحمد عند الصباح مسراك وتنال بركة مسعاك وتكون قد أَرْضِيت ربك وأَرْضَاكَ وَأَنَالَكَ حيث تريد من أملك وتقطع إليه بهمنك وكلايتك وأرجو أن أصل من السلوك بك على أقصد الطريق وآمنها من الفوائل والآفات وان عرضت الآن إلى لمحة يسيرة على التشويق والحث على دخول الطريق فانا واصف لك قصة « حي بن يقظان وابسال وسلامان » ففي قصصهم عبرة لأولى الألباب وذكري لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

﴿ إيضاح لفلسفة ابن طفيل ﴾

(١)

فلسفة ابن طفيل الباقية لنا موجوده في كتابه الوحيد الذي سماه « أسرار الحكمة المشرقية » وهو بنفسه رسالة « حى بن يقظان » ويظن الذين اطلعوا عليها ان ابن طفيل استخلصها من فلسفة ابن سينا وهذا خطأ لأنها فلسفة قائمة بذاتها ، وقد فرغنا فيما ترجمنا له من عرض آرائه في فلسفة الأئمة السابقين كالفارابي والغزالي وابن سينا وابن باجه ورأينا هذا الفيلسوف الأندلسي يخط نفسه خطة قائمة بذاتها مستقلة عن أفكار الجميع ، وقد مهد لها بتمهيد بليغ أقر فيه بأنه وقف على آراء الجميع واستخلص لنفسه مذهباً وهو أول فيلسوف اسلامى صب فلسفته في قالب قصصى وجعل بطل قصته شخصاً متوحداً يكون نفسه وأفكاره بالاحتكاك بالطبيعة وبالكائنات التى هى أقل منه درجات من جماد ونبات وحيوان الى أن يصل الى نقطة الادراك والاتصال بهذه القصة الخيالية تمد بحق نوعاً من الطوبى العقلية التى قلدها ونسج على منوالها كثيرون من كتاب الافرنج ومفكرهم

(٢)

وقد ذكر هذا الفيلسوف انه علم عن السلف الصالح ان جزيرة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء وهى الجزيرة التى يتولد بها الانسان من غير أم ولا أب وبها شجر يثمر نساء . ولا يخفى ما فى هذا القول من مفارقة بينه وبين تاريخ نشوء الانسان من آدم وحواء فان جميع الأديان اتفقت على ان أصل الانسان من رجل وامرأة خلقهما الله ، ولم يقل أحد من علماء الدين ان الانسان يخلق من الأرض لاعتدال جوها وخصب تربتها ، فهذا القول من ابن طفيل يعد غريباً بوصف كونه حكماً مسلماً نشأ فى القرن السادس للهجرة يقول ابن طفيل بعد أن تكلم على تكون الحرارة بسبب الحركة وملاقاة الأجسام الحارة والاضاءة ، وان بقاع الأرض التى على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤس أهلها سوى مرتين فى العام عند حلولها برأس الحمل وعند حلولها برأس الميزان وهى فى سائر العام ستة أشهر جنوباً وستة أشهر شمالاً منهم ، فليس عندم حر مفرط ولا برد مفرط وأحوالها بسبب ذلك متشابهة . وهذا القول يحتاج الى بيان أكثر من هذا لا يليق بما نحن بسبيله وانما ننهك عليه لأنه من الأمور التى تشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الانسان بتلك البقعة من غير أم ولا أب ، فمنهم (أى من علماء السلف الصالح) من بت الحكم وجزم

القضية بأن حي بن يقظان من جملة من تكون في تلك البقعة من غير أم ولا أب ، ومنهم من أنكر ذلك وروى من أمره خبراً تقصه عليك :

ثم اندفع ابن طفيل يروي قصة خيالية عن زواج سرى بين يقظان وبين أخت ملك تلك الجزيرة ، وأن هذا الزواج السرى أثمر طفلاً وضعته أمه في تابوت والفته في البحر كما حدث لموسى عليه السلام .

وإن الذي كفل الطفل الذي خله ملك تلك الجزيرة وأبوه يقظان ظلية حنت عليه ورئمت به وألقمته حاملة نديها وأروته لبناً سائفاً ، وما زالت تتمده وتريه وتدفع عنه الأذى .

على أن ابن طفيل لم ترضه تلك القصة فماد إلى رواية التكوين الطبيعي بغير أم ولا أب فقال : وأما الذين زعموا أنه تولد من الأرض فانهم قالوا إن بطناً من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين والأعوام حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافؤ وتعادل في القوى ، وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جداً ، وكان بعضها يفضل بعضاً في اعتدال المزاج والتهوية لتكون الأمشاج . وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة بمزاج الانسان ، فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها وحدث للوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جداً منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممثلة بجسم لطيف هوائى في غاية من الاعتدال اللائق به فتعلق به عند ذلك الروح الذى هو من أمر الله تعالى وتثبت به تشبهاً يسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل !!

(٣)

ويستمر ابن طفيل في سرد قصة هذا الطفل الذى هو أشبه الناس برونصون كروزو اسلامى أندلسى يتميز عن ذلك الملاح المتوحد بأنه نشأ فريداً لم يعرف بشراً ولم يألف إنسان ولم يقف على شيء من شؤون الحياة المادية والمعنوية . ولم يفت ابن طفيل بهد أن مس مذهب النشوء والارتقاء عن بعد ، ان يلم بمبدأ تنازع البقاء بين الانسان والحيوان فقال : « واتخذ من أغصان الشجر عصياً سوى أطرافها وعدل منها وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ويقاوم القوى منها فبذل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة وعلم أن ليد ففضلاً . كثيراً على أيديها إذ أمكن له بها من ستر عورته واتخاذ العصي التى يدافع بها عن حوزته ما استغنى به عما أراده من الذنب والسلاح الطبيعى » ! !

(٤)

ولما كان ابن طفيل طبيباً وعالمًا بالطبيعة والفلك والرياضيات فقد جعل بطل قصته الفلسفية على صورته وصورة من سبقه من الفلاسفة

« فبعد أن ماتت الطبيعة التي كانت تغذيه بلبنها تتبع ذلك كله بتشرح الحيوانات الأحياء والأموات ، ولم يزل ينعم النظر فيها ويحيد الفكرة حتى بلغ في ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان وإن كان كثيراً بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته فإنه واحد بذلك الروح الذي مبدؤه من قرار واحد » .

وكان حي بن يقظان ينازع الحيوان البقاء في سن سبع سنين . فلما بلغ واحداً وعشرين عاماً كان قطع مرحلتين في الحياة الأولى اتقانه التشريح ووقوفه على سر الحياة المادية والثانية استعماله بعض الجماد والنبات أدوات للمحاربة والتغلب ، واتخاذ بعض الحيوان بالحيلة أو بالقوة لاختضاع البعض الآخر مما هو في حاجة الى استخدامه .

هذا ما أردنا إirاده من تلخيص تلك الفلسفة وسنذكر الآن بعض نصوص من قلم ابن طفيل نفسه في وصف الترقى الروحاني ووصف الطريق التي سلكها حي بن يقظان الى ان وصل الى الغاية التي يرى اليها ابن طفيل وقد قسمنا موضوع الاقتباس الى ستة اقسام:

القسم الاول : في كيفية علم حي بن يقظان ان كل حادث لا بد له من محدث .

القسم الثاني : في نظر حي بن يقظان في الشمس والقمر والكواكب وبقية الاجرام السماوية .

القسم الثالث : في ان كمال الذات ولذتها انما هو بمشاهدة واجب الوجود .

القسم الرابع : في أنه نوع كسائر أنواع الحيوان وانه انما خلق لغاية أخرى .

القسم الخامس : في ان السعادة والفوز من الشقاء انما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود والواجب الوجود .

القسم السادس : في الفناء والوصول .

٥ - القسم الأول

في كيفية علم حي بن يقظان ان كل حادث لا بد له من محدث

« فعلم بالضرورة ان كل حادث لا بد له من محدث فارتسم في نفسه بهذا الاعتبار فاعل للصورة ارتساماً على العموم دون تفصيل ، ثم انه تبع الصور التي كان قد علمها قبل ذلك صورة صورة فرأى انها كلها حادثة وانها لا بد لها من فاعل ثم انه نظر الى ذوات الصور

فلم ير انها شئ اكثر من استعداد الجسم لأن يصدر عنه ذلك الفعل مثل الماء فانه اذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة الى فوق وصلاح لها فذلك الاستعداد هو صورته اذ ليس هنا الاجسم وأشياء تحس عنه بعد ان لم تكن مثل الكيفيات والحركات وفاعل يحدثها بعد ان لم تكن ، فصولح الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعداد بصورته ولاح له مثل ذلك في جميع الصورة فتيين له ان الافعال الصادرة عنها ليست في الحقيقة لها وانما هي لفاعل يفعل بها الافعال المنسوبة اليها وهذا المعنى الذى لاح له هو قول رسول الله (ص) « كنت سمعته الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » وفي محكم التنزيل « فلم تقفلوم ، ولكن الله قتلهم ! وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى ! » فلما لاح له من امر هذا الفاعل ما لاح على الاجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث الى معرفته على التفصيل وهو بعد لم يكن فارق عالم الحس فجعل يطلب هذا الفاعل المختار من جهة المحسوسات .

٦ - القسم الثانى

في نظر حى بن يقطان في الشمس والقمر والكواكب وبقيّة الاجرام السماوية

« فنظر أولاً الى الشمس والقمر وسائر الكواكب فرآها كلها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب فما كان منها يمر على سمت رأسه رآه يقطع دائرة عظمى وما مال عن سمت رأسه الى الشمال أو الى الجنوب رآه يقطع دائرة اصغر من تلك ، وما كان ابدع عن سمت الرأس الى أحد الجانبين كانت دائرته اصغر من دائرة ما هو اقرب حتى كانت اصغر الدوائر التى تتحرك عليها الكواكب دائرتين اثنتين احدهما حول القطب الجنوبي وهى مدار سهيل والأخرى حول القطب الشمالى وهى مدار الفرقدين ولما كان مسكنه على خط الاستواء الذى وصفناه اولاً كانت هذه الدوائر كلها قائمة على سطح أفقه ومتشابهة الاحوال فى الجنوب والشمال وكان القطبان معاً ظاهرين له وكان يترقب اذا طلع كوكب من الكواكب على دائرة كبيرة وطلع كوكب آخر على دائرة صغيرة وكان طلوعهما معاً فكان يرى غروبهما معاً وأطرد له ذلك فى جميع الكواكب وفى جميع الاوقات فتيين له بذلك ان الفلك على شكل الكرة وقوى ذلك فى اعتقاده ما رآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب الى المشرق بعد مغيبها بالمغرب ، وما رآه ايضاً من انها تظهر لبصره على قدر واحد من العظم فى حال طلوعها وتوسطها وغروبها وانها لو كانت حركتها على غير شكل الكرة لكانت لا محالة فى بعض الاوقات اقرب الى بصره منها فى وقت آخر .

٧ - القسم الثالث

في ان كمال الذات ولذتها انما هو بمشاهدة واجب الوجود

« فلما تبين له ان كمال ذاته ولذتها انما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبداً حتى لا يمرض عنه طرفة عين لكي توافيه منيته وهو في حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون أن يتخللها ألم ، واليه أشار الجنييد شيخ الصوفية وامامهم عند موته بقوله لأصحابه « هذا وقت يؤخذ منه الله اكبر وأحرم الصلاة » ثم جعل يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل حتى لا يقع منه اعراض ، فكان يلزم الفكرة في ذلك الموجود كل ساعة كما هو ، الا ان يسبح لبصره محسوس ما من المحسوس أو يخرق سمعه صوت بمض الحيوان . أو يعترضه خيال من الخيالات ، أو يناله ألم في بعض أعضائه ، أو يصيبه الجوع أو العطش ، أو البرد أو الحر ، أو يحتاج الى القيام لدفع فضوله فتختل فكرته ويزول عما كان فيه ويتعذر عليه الرجوع الى ما كان عليه من حال المشاهدة الا بعد جهد ، وكان يخاف أن تفجأ منيته وهو في حال الاعراض فيفضى الى الشقاء الدائم وألم الحجاب فساء حاله ذلك وأعياء الدواء » .

٨ - القسم الرابع

في أنه نوع كسائر أنواع الحيوان وأنه انما خلق لغاية أخرى

« قطع بذلك على أنه هو الحيوان المقتدل الروح الشبيه بالأجسام السماوية كلها وتبين له انه نوع كسائر أنواع الحيوان وانه انما خلق لغاية أخرى وأعد لأمر عظيم لم يعد له شيء من أنواع الحيوان وكفى به شرفاً أن يكون أخس جزأيه وهو الجسماني أشبه الأشياء بالجواهر السماوية الخارجة عن عالم الكون والفساد المتزهة عن حوادث النقص والاستحالة والتغير ، وأما أشرف جزأيه فهو الشيء الذي به عرف الموجود الواجب الوجود وهذا الشيء العارف أمر رباني الهى لا يستحيل ولا يلحقه الفساد ولا يوصف بشيء مما توصف به الأجسام ولا يدرك بشيء من الحواس ولا يتخيل ولا يتوصل إلى معرفته بالة سواء بل وصل اليه به فهو العارف والمعرف والمعرفة وهو العالم والمعلم والمعلوم لا تباين في شيء من ذلك اذ التباين والانفصال من صفات الأجسام ولواحقها ولا جسم هناك ولا صفة جسم ولا لاحق بجسم »

٩ - القسم الخامس

في أن السعادة والنور من الشقاء إنما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود
 « وقد وقف على أن سعادته وفوزه من الشقاء إنما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود
 الواجب الوجود حتى يكون بحيث لا يعرض عنه طرفة عين ثم أنه نظر في الوجه الذي
 يتأتى له به هذا الدوام ، فأخرج له النظر أنه يجب عليه الاعتماد في هذه الأقسام الثلاثة
 من التشبهات :

أما التشبه الأول فلا يحصل له به شيء من هذه المشاهدة بل هو صارف عنها وعائق
 دونها اذ هو تصرف في الأمور المحسوسة والأمور المحسوسة كلها حجب معترضة دون تلك
 المشاهدة وإنما احتيج الى هذا التشبه لاستدامة هذا الروح الحيواني الذي يحصل به
 التشبه الثاني بالأجسام السماوية فالضرورة تدعو اليه من هذا الطريق ولو كان لا يخلو
 من تلك المضرة .

وأما التشبه الثاني فيحصل له به حظ عظيم من المشاهدة على الدوام فهو مع تلك
 المشاهدة يعقل ذاته ويلتفت إليها حسبما يتبين بعد هذا .

وأما التشبه الثالث فتحصل به المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض الذي لا التفات
 فيه بوجه من الوجوه إلا الى الموجود الواجب الوجود والذي يشاهد هذه المشاهدة قد
 غابت عنه ذات نفسه وفنيت وتلاشت وكذلك سائر الذوات كثيرة كانت أو قليلة إلا ذات
 الواحد الحق الواجب الوجود جل وتعالى وعز ! »

١٠ - القسم السادس

في الفناء والوصول

« فاضغ الآن بسمع قلبك وأحرق ببصر عقلك الى ما أشير اليه لعلك تجمد منه هدياً
 يلقيك على جادة الطريق ! وشرطى عليك أن لا تطلب منى في هذا الوقت مزيد بيان
 بالمشافهة على ما أودعه هذه الاوراق فان المجال ضيق والتحكم بالالفاظ على أمر ليس من
 شأنه أن يلفظ به خطر . فاقول أنه لما فنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود
 إلا الواحد الحى القيوم وشاهد ما شاهد ثم عاد الى ملاحظة الاغيار عند ما أفاق من حاله
 تلك التى هى شبهة بالسكر خطر بياله أنه لا ذات له يفاير بها ذات الحق تعالى وان
 حقيقة ذاته هى ذات الحق وان الشيء الذى كان يظن أولاً أنه ذاته المغايرة لذات الحق

ليس شيئاً في الحقيقة بل ليس ثم شيء إلا ذات الحق وإن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها فإنه وإن نسب إلى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس وإن زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مفنيه ، ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله فإذا عدم الجسم عدم ذلك القبول ولم يكن له معنى

« وتقوى عنده هذا الظن بما كان بان له من أن ذات الحق عز وجل لا تتكرر بوجه من الوجوه وإن علمه بذاته هو ذاته بعينها فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته فقد حصل عنده ذاته فقد كان حصل عنده العلم فحصل عنده الذات وهذه الذات لا تحصل إلا عند ذاتها ونفس حصولها هو الذات فإذن هو الذات بعينها وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة العارفة بتلك الذات الحقة التي كان يراها أولاً كثيرة وصارت عنده بهذا الظن شيئاً واحداً وكادت هذه الشبهة ترسخ في نفسه لولا أن تداركه الله برحمته وتلافاه بهدأته فعلم أن هذه الشبهة إنما ثارت عنده من بقايا ظلمة الأجسام وكدورة المحسوسات فإن الكثير والقليل والواحد والوحدة والجمع والاجتماع والافتراق هي كلها من صفات الأجسام »

